المهمات

من مجموع المقالات

أبو أسامة المغربي

حكمة أمة

تزهو الأمةُ الإسلاميةُ في حواضر الأزمنةِ والأمكنةِ زَهْوَ الفلاح في أرضه صبيحةَ يومٍ مشرقٍ أخاد ، يَرْنُو إلى الطيور كيف تروحُ خماصاً وتعود بطاناً ، قد تركت صغارها في جحورها وأمستهم شباعاً في عشوشها تنوط بهم نَوْطَ الإبل بناصية الطريق ، فيسبح بحمد الله وجلالة ، ثم تشرئبُ عنقه لذلك الفوج من الطيور كيف أخذ كل طيرٍ منه مكانه على بساط الرياح ، تصدر أصواتاً تبشر بـصباحٍ جميلٍ تتخلله أنفاسٌ طيبةٌ زكيةٌ، وتلك النسائم العليلة التي ما زادت صدره إلاّ انشراحاً وقلبه إلاّ حباً وفكره إلاّ ذكاءا ، فما يزيده ذلك إلاّ تسبيحاً لمن شق طريق الشمس في صبيحة النهار ، فهو يدركُ ويعلمُ ويدري أنه يتقلب في نعم الله تقلب الرضيع في حضن أمه ، فما به من نعمة فمن الله .

يخطو خطوات متزنة في أرضه ، يقلبُ ويفحصُ ويراقبُ ، وهذه الرياح وهـي تلاعـبُ جلبابـه المتواضع وتلك الطيور محيطةٌ به تشكل معه خليطا لكائنٍ يسبح الله بكرة وأصيلا ، وهذه حقـول القمح كأنها تفسح له السبيل إلى أعماقها ، ما زادت صورة الفلاحِ والطيور إلا تألقاً ورونقاً ، فما أحسنَ من هذه الصورة الآخادة التي تَأْسِرُ القلب في عجيب ملكوت الله ، تسترعي نظر كل مـن ينظر إليها ، فيضيف لهذه الصورة تعلقا بمن أعجز الرَّسام عن خط مثلها ، ذلك الفعل مـن ذلكـم الفلاح البسيط ، فها هو قد اتجه بناصيته نحو القبلة وقد أعد مكاناً يجدد فيه العهد مع خالقه ضحىً بعد أن كان جددها فجراً وصبحاً ، مادّاً يديه مكبرا ، ثم أخذ في حركاتٍ تجانست فيها أعـضاؤه وكأنها ما خلقت إلاّ لتلك الحالة ، وتشاكلت معها أرضه وزراعته بذلك النبات الأخضر الطـري وكأنها ما وجدت إلاّ لاستقبال تلك الحركات ، فيا سبحان من سير الأمور على مقاديرها .

إنها بشائر تبشر بتمام يوم ربيعي جميل ، فهذه الشمس بأشعتها الصافية الزاهية تلاعب لطائفة الجـو وأوراق الشجر وتلك الجداولُ الرقراقة والحقول المترامية الأطراف وتلك البساتين اليانعـة الزاهيـة الألوان والحاملة لرقائق الأزهار ، إنه مكان يتحرر فيه العبيد ويصغر فيه الشيوخ وكبار الأسـانيد ، فهو مكان تدرك فيه حقيقتك وتحسب حجمك ورَزِيْمَتَكَ ، حتى كأنك ما تعد نفسك شيئا وسط تلك الأزهار الفوَّاحة والرياح اللوَّاحة والجداول اللاماعة ، ووميض البِرَكِ وحَفِيفِ الأغصان وهدير الأنهار وظلال الأشجار .

راح الفلاح يجول بخاطره هنا وهناك ، متابعاً له الطَرْفَ ، بعد أن أتم الصلاة ، مائلا نحو اتجاه هبوب النسائم العليلة التي تلامس صفحة وجهه وتلاعب رموش عينه ، يتذكر يوم كانت هذه النسائم ريحا صرصراً عاتية قد صرعت الرجال وقطعت الآجال ، فما زال يتذكرها فقد مرت البارحةَ فقط ، يوم كان رجال الصـــليب وركبان التثليث يعيثون في أرضه الفساد ويسعون فيها الخراب ويبغون البغي والظلم والقتل ، يتذكر لَمّا أعد ما استطاع من قوةٍ ومن رباط الخيل ، ولم يدع لنفسه سبيلا لترتــع فيما لا ينفع ، وإلا يفعل تكن فتنة في أرضه وفساد كبير ، يظهروا عليه فلا يَرْقُبُوا فيه إلاًّ ولا ذمة ، يُرضوه بأفواههم : – قد جئناك بالحضارة وبالأساليب الجديدة الرنانة — لكن قلوبهم تأبى أن تجانس أفواههم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قد سلبتهم خيراتُ أرضه وسحرتهم ، فقــد ســلبتْ عقولهم وقلوبهم فنكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراجه من أرضه ، أدرك الفلاح أنه لابد من التربص حتى يأتي الله بأمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، فقد نصر الله المـؤمنين في مــواطن كثيرة خَفَّتْ فيها مؤنتهم ، وقَلَّتْ فيها أعدادهم ، فربما أنزل الله جنودا من عنده تعينه — الفلاح — على أمره للدفاع عن دينه وأرضه ، فهؤلاء جاؤوا ليــستبيحوا الأعــراض ، ويــسفكوا الــدماء، ويستحيوا النساء ، ويذبحوا الأطفال ، وما جالت في خاطره ولا تلكأت في نفسه ، وما أسرها حتى أبدها الله في سماء أرضه ، فقد غارت أنوار الربيع المتألقة خلف سحبٍ قاتمة كأنها قطع من الظــلام الدامس الخانق ، وزمجر الرعد واربدت الغيوم ، وانشقت السماء بماءٍ منهمرٍ ، وعصفت ضــرباتٌ رعديةٌ سريعةٌ قاصمةٌ في لمح البصر يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار ، وأصــبح رجــال الــصليب وركبان التثليث مسلوبين من كل ما كانوا يتمتعون به من عزٍ وسلطةٍ ومكانة ، تتوزعهم مــشاعرُ مدلهمة ، أخفها كافٍ لتمزيق الصخور ، وساروا يخرجون من أرضه كأنهم جراد منتشر ، لقد انهار كل ذلك في لمح البصر دون طلائع ولا مقدمات ، فهذه الأرض تقطع سيقانهم وأقدامهم بما نالتــه منهم بالحجارة والصخور الحادة الأطراف ، وهذه السماء تقذف على رؤوسهم مطراً هو كالسهام القاتلةِ الحاملة للمنون في رمشة عين ، وهذه الأفاعي والأسود والضواري ، وهذا الجراد أيضا والقمل والضفادع جنودٌ ما تستطيع لها عدّا ولا تبصرها عينا فما يعلمها إلا الله ، كلها انضوت تحت خطٍ هجومي واحد مع الفلاح تسانده وتآزره وتناصره فهي قد سبق وأن شكلت معه كيانا واحدا يسبح الله ، فكيف لا يحاربون من غزى الأرض ودمر العمران وحارب الإنسان والحيوان ، أليس ينــادي بقهر الطبيعة ، إذاً كلنا واحد ضده وسُيهزم جمعــه ويولى الــدبر وإن كان بالمعدات

والمقاتلات والحاملات .

ولقد صبحهم بكرةً فتطهرت الأرض من أوساخهم ولقد يُسر النصر فهل من مـــذكر ، وأصـــبح الفلاح يساير بخطواته مسارح أفكاره وخواطره ، متذكراً كيف هُزم الغازي ليلة البارحة ، فمد يده نحو الهواء يحتضنه والسنابلُ تغمره والطيور تزقزق له ، موفيا بعهده بحمايتهم وصيانتهم من كل خطر محدق ، وكل من يهلك الحرث والنسل ، فكلهم طوع خدمته لعبادة ربه .

ألا ذلكم هو حال الأمة الإسلامية ، وتلك حكمة ربي الجوية والبرية والبحريـــة ، وتحـــت الأرض وفوق الأرض في الماضي والحاضر والمستقبل ، النصر للإسلام ولأمة الإسلام فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (1)

غير الزمان عن أمور كانت تملك ناصية العقل وزمام اللسان ، تمشي بين أفواه الناس وكأنْ ليس لهم غيرها ، تقام لها المحافل والمجامع ، وتعقد من أجلها حلقات أهل العلم حول اسطوانات المساجد ، وهاهي اليوم وكأنها ما كانت تجول وتصول في حياة الناس ، وكم من العلماء من أوذوا في سبيل دحضها فأصبحت سلفا ومثلا للآخرين ، وتلك إن فكّر الإنسان حكمة الله ﷻ في أرضه ، وسُنّتُه التي قد خلت في عباده ، ابتغى من خلالها تمحيصَ الخبيث عن الطيب والعاملِ له والمخلصِ لغيره ، حتى يقول له يوم تمور السماء مورا وتصير الجبال كالعهن ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (2) « **إِنَّكَ مَا عَمِلْتَ هَذَا لِوَجْهِي وَلاَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي فَاذْهَبْ إِلَى مَنْ كُنْتَ تُحَبِّرُ لَهُ الأَقْوَالَ وَتُزَيِّنُ لَهُ الأَفْعَالَ** » وتلك الطامة الكبرى يوم لا تجد لنفسك حجةً أمام من أوجد الحجة وصاحِبَهَا ، يوم لا تحرك لسانك لتعجل بأعذارك فأنت أمام الذي ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (3) .

كل هذا في سبيل فكرةٍ مرّت بين الناس فلا عاقل يلجم عقالها ولا راد لجماحها وكأنها قد أوتيت من القوة ما لا يستطيع رده المحقق المدقق ، فمن قائلٍ بخلق القرآن وتجسد الرحمان وصدفة الأكوان ومصير الحيوان ، أكل الدهر على مثل هذه الأقوال وشرب ، وتلف أصحابها في قبورهم فكانوا في خوضهم يلعبون وما ظلت كلماتهم تجابه الشهور والليالي والأعوام بل وُئدت في مهدها من طرف الجبال الأعلام ، وتلك حال الكلمة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، وأصبحت كالشيء النادر في المتحف الجامع أقوال وأرآء وأفكار واتجاهات ، كلها ماتت وحُفظت جثثها في متحف التاريخ ، فليس لراغب العلم فيها أدنى منفعة ، يقول المؤرخ الكبير ابن خلدون : « **وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا** »(4) فهؤلاء قد كتبوا ودونوا ونالوا بها درجات العلى ، جعلوا كلامهم كحد السيف على ما خرج عن نطاق الحق والفهم الإسلامي الصافي الأنيق ، فكانوا يكتبون وروح القدس معهم إذ مما لا ينكره جاهل أن

جاهل أن الجهاد بالكلمة كالجهاد بالسيف أو أكثر ، فرب كلمة أسرت في ليلة مالا يأسره السيف في أعوام ، وأولئك كتبوا ودونوا ونالوا بها رضا الشيطان وسخط الرحمان فيا لبعد ما بين الفريقين . وتبقى الكلمة الطيبة فرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، فقد كتب الله ﷻ لها القبول في قلوب وعقول ومجلدات الناس فلا ترى لها نازعا ينازعها على ألسنة الناس وعقولهم وصفحات كتبهم ، على أن من لا يحسن صناعة الكلام في مسائل الخلاف التوجه إلى العمل لمزيد المنفعة المرجوة من عمله وفعله لا من قوله ، ألا ترى أن رسول الله ﷺ دعا بفعله قبل أن يدعوا بقوله وكلمته ، لا أن يتجه إلى ما لا يحسن ولا يطيق فيرد بعض الحق الذي لا يعلم له من سبيل في غير كلامه ، فيصير بين الأقوال غريبا فيفسد أكثر مما يصلح ، وقد حفظ لنا الشعر قول ثابت بن كعب العتكي في العصر المرواني ، هو الأنفع لمن يبغي دخول معترك لأقوال مضت وامحت ، يقول :

فَإِلاَّ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيباً فَإِنَّنِي * بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ الوَغَى لَخَطِيبُ

فعدم الإحسان في شيء لا يدل على عدم إحسان غيره وإلا لما كان تميز الإنسان عن غيره .

وكما جرت عادة العرب في الحرب من الكر والفر جرت عادة الكلمة في الدهر من الكر والفر فيُسَخِّر أناس أقلاما لبعث أفكار مالها على الناس من سلطان ولا رقيب فيحفرون قبورها ويرسلونها بين الناس ، غير أنها أفكار تمشي بأكفانها ورائحة الموت تسبقها يعرفها من له أدنى معرفة بالتاريخ .

وتلكم الإشارة من تلك العبارة ، فجاء هذا الزمان بأفكار بعضها قديمة عليلة رديئة ، وبعضها زُينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وبعضها ابتدعوه من غوائل الأفكار فبثوه بين الناس ، فمن قائل بعصرنة الإسلام ورؤية سيد الأنام وخرق شبكة الأسباب والكشف عن يوم الميعاد ، وكلها أفكار ما يردد أصحابها إلا ألفاظها على أسطح الألسن حتى يشبعوا إبليس نهما فيما أراد ، وإلا لما كان لها من شبر في الساحة الإسلامية، فقد اقتضت حكمة الله أن لا يدوم إلا ما كان خالصا « ما كان لله دام واتصل » وأن تُجتَثَّ كلمةٌ أريد بها باطل فهي لغير وجه الله يتخللها إفساد وضرر بعقيدة العباد « وما كان لغير الله انقطع وانفصل» والعزيز في الأمر أن يلحظ الإنسان ما يلفظ ، فإنَّ على لفظه رقيبا عتيدا ورُبَّ كلمة لا يلقي لها المرء بالا تهوي به في نار جهنم سبعين خريفا .

فما الداعي للتقعر في الكلام والله واحد فرد صمد ، وما الداعي للكشف ورسول الله ﷺ حي في

قلوب الناس وفي أعمالهم ، فهي على سنته ومنهجه ، وما الداعي إلى عصرنة الإسلام والإسلامُ أوّل من دعا إلى المحافظة على البيئة وجعل من مميزات الجنة نخلاً وشجراً على سبيل المثال فقط وإلا لغرق الإنسان فيما لا يعلم من دعوة الإسلام الإنسان إلى ما يكمل عيشه ويحسن خلقه ، وما الداعي لتأليب المرأة على دينها وتفهيمها بُذّاً لجوره عليها على العلم أنها ترث أقل من الرجل في أربع حالات فقط ومثله تماما في ثلاثين حالة وأكثر منه في عشر حالات ، أضف إلى ذلك أن هناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث فيها الرجل ، وما الداعي للتشدد في لباس معينٍ وليس للإسلام زِيٌّ معين وإنما له قلب معين ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [5] فاختلفت أشكال المسلمين وصفاتهم وأجناسهم وملابسهم ووظائفهم لكنها على قلب رجل واحد يدري ويعلم أن لا بقاء إلا للإسلام طال الدهر أم قصر .

---

1 – سورة ق الآية 18 .

2 – سورة الإسراء الآية : 56 .

3 – سورة غافر الآية : 19 .

4 – المقدمة ص: 398 .

5 – سورة الشعراء الآية : 89 .

صلاة ركعتين قبل المغرب

ويحتج من يقول بهما بحديث عبد الله المزني قال : قال رسول الله ﷺ « **صَلُّواْ قَبْلَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ** » قال في الثالثة «**لمن شاء** » كراهية أن يتخذها الناس سنة[1] وكذلك بحديث يزيد بن أبي حبيب قال : سمعت مرثد بن عبد الله اليزني قال : أتيت عقبة ابن عامر الجهني فقلت : ألا أعجبك من أبي تميم يركع ركعتين قبل صلاة المغرب فقال عقبة : إنا كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ فقلت : فما يمنعك الآن ؟ قال الشغل[2]

وكذلك بحديث أنس بن مالك قال : كان المؤذن إذا أذن قام الناس من أصحاب النبي ﷺ يَبْتَدِرُونَ السواري حتى يخرج النبي ﷺ وهم كذلك يصلون الركعتين قبل المغرب ، ولم يكن بين الأذان والإقامة شيء ، قال عثمان بن جَبَلَةَ وأبو داود عن شعبة : لم يكن بينهما إلا قليل[3] وفي لفظ : كنا نصلي على عهد رسول الله ﷺ ركعتين بعد غروب الشمس قبل صلاة المغرب ، فقيل له أكان رسول الله صَلاَّهُمَا ؟ قال كان يرانا نصليهما فلم يأمرنا ولم ينهانا[4] .

ويرد من يقول بعدمهما بأنّ الحديث المحتج به وقع فيه الاستثناء وذلك مخافة أن يتخذها الناس سنة ، مستدلين به على أنها ليست سنة وما كان سنةً لا يلزمُ أخذُ الناسِ به فما بالك إن لم يكن سنةً أصلاً ، أضف إلى ذلك أنها بهذا الحديث لا تقومُ مقامَ رواتب الفرائض ، قال ابن حجر [ومعنى قوله "سنة" أي شريعة وطريقة لازمة وكأن المراد انحطاطُ مرتبتها عن رواتب الفرائض ، ولهذا لم يَعُدَّهَا أكثر الشافعية في الرواتب واستدركها بعضهم][5] وقيل في هذا الحديث أنه قول لم يقرره العمل قال ابن حجر [وتعقب بأنه لم يثبت أن النبي ﷺ واظب عليها][5].

وقال ابن القيم في الزاد [كان ﷺ يحافظ على عشر ركعات في الحضر دائما وهي التي قال فيها ابن عمر : حفظت من النبي ﷺ عشر ركعات : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب في بيته وركعتين بعد العشاء في بيته وركعتين قبل صلاة الصبح (البخاري : 1180)][6] .

وكان ابن عمر من أَشَدِّ الصحابة حِرْصاً على السُّنة وإتباعِ الفعل النبوي ولو أَوْصَاهُ رسول الله بركعتين قبل المغرب لَمَا تركهما، والفِطْنَةُ في فَهْمِ المُرَادِ تُذْهِبُ الشَّكَ ، وقيل أنَّ الحديث لم يكن المقصود منه التخير في الصلاة قبل المغرب لخصوصية الركعتين وإنما حرصاً للمسلمين على التواجد في المسجد قبل الصلاة ، فإنْ كان التأكيد على صلاة ركعتين قبل المغرب بهذا التأكيد فما بالك بصلاة الفَرْضِ أصلاً ، فيكون بذلك الحديث منبِّها ومحرِّضا على الحضور للمسجد قبل الصَّلاة لاَ لِـصَلاَةِ

لِصَلاَةِ رَكْعَتَيْنِ، قال ابن حجر [ويحتمل أن يكون المراد به الحث على المبادرة إلى المسجد عند سماع الأذان لانتظار الإقامة لأن منتظر الصلاة في صلاة ، قاله الزين بن المنير][7].

ثم إنَّ النبي ﷺ قد ورد عنه النهي عن الصلاة أثناء غروب الشمس وشروقها و لم يُسَجَّلْ عَنْهُ أَشَدُّ الصَّحَابَةِ إِتِّبَاعاً له أنه كان يصلي قبل المغرب صلاة ، فما المقصود إذن بحديث« **صلوا قبل صلاة المغرب** » إلاَّ الحِرْصُ على التواجد في المسجد لأداء الصلاة وذلك لضيق وقتها . على أنه قد وردت رواية وقع فيها الاستثناء وإن كانت رواية شاذة وهي « بين كل أذانين صلاة ، إلا المغرب » قال ابن المنير [ويؤيد ذلك ما رواه البزار من طريق حيان بن عبيد الله عن عبد الله بن بريدة عن أبيه مثل الحديث الأول وزاد في آخره "إلا المغرب"][8].

أما الحديث الثاني فقالوا فيه أنه حجة عليهم لا لهم وذلك بورود التعجب من عبد الله اليَزَنِي دليلا على أنها لم تكن مشتهرة بين الصحابة ، ولو كانت سنة وقررها العمل لما تركها عقبة من أجل الشغل ، وإلا فإنه سيترك صلاة المغرب بتشاغله عن صلاة ركعتين قبل المغرب لضيق الوقت بينهما . ويدل عليه ما سبق من قول أنس (ولم يكن بين الأذان والإقامة شيء) ، وقول عثمان بن جبلة وأبو داود عن شعبة : (لم يكن بينهما إلا قليل) .

أما الحديث الثالث فيدل على أن الصحابة كانوا يصلونهما مع ابتداء الأذان خوفا من عدم إدراك الصلاة مع الرسول ﷺ وقد ورد عن ابن المنير قوله ["بين كل أذانين صلاة" مخصوص بغير المغرب ، فإنهم لم يكونوا يصلون بينهما بل كانوا يشرعون في الصلاة في أثناء الأذان ويفرغون مع فراغه][9].

على أنه قد ورد من الصحابة أنفسهم ما يدل على أن صلاة ركعتين قبل المغرب لم تكن مشتهرة بينهم فقد روي عن ابن عمر أنه نفى أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يصليهما قال ابن حجر [وروي عن ابن عمر قال (ما رأيت أحدا يصليهما على عهد النبي ﷺ)وعن الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة أنهم كانوا لا يصلونهما ، وهو قول مالك والشافعي][10].وبذلك يقع التعارض بين قول ابن عمر وأنس وكلاهما من الصحابة ويرفع هذا التعارض الرواية الآتية في الباب في قول أنس(كنا نصلي على عهد رسول الله ﷺركعتين بعد غروب الشمس قبل صلاة المغرب)على أن الصحابة الذين كانوا يصلون الركعتين كانوا يتحرون غروب الشمس لعدم الوقوع في النهي النبوي في الصلاة أثناء الغروب ، فإذا لم يتحقق لهم الغروب لضيق وقت المغرب لم يصلوهما لاختلاف الأوقات باختلاف الفصول . وقد سئل النخعي عن صلاة ركعتين قبل المغرب فقال [هما بدعة]

وقد أورد قول النخعي هذا الشوكاني في النيل[11].والنووي في شرحه على مسلم[12]. وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي [لم يفعلهما أحد بعد الصحابة] وتعقبه ابن حجر بقوله [وفيه رد على قول القاضي أبي بكر بن العربي "ولم يفعلهما أحد بعد الصحابة" لأن أبا تميم تابعي وقد فعلها][13] ثم أضاف ابن حجر على هذا بقوله [وذكر الأثرم على أحمد أنه قال : ما فعلتهما إلا مرة واحدة حين سمعت الحديث][14]. وقال النووي [وفي هذه الروايات استحباب ركعتين بين المغرب وصلاة المغرب ، وفي المسألة وجهان لأصحابنا أشهرهما : لا يستحب ، وأصحهما عند المحققين يستحب لهذه الأحاديث ، وفي المسألة مذهبان للسلف واستحبهما جماعة من الصحابة والتابعين من المتأخرين أحمد وإسحاق ولم يستحبهما أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وآخرون من الصحابة الفقهاء][15].

ويستدل من قال بعدمهما على ما مر من الأقوال بحديث ابن عمر قال قال: رسول الله ﷺ « **لا تحرَّوا بِصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها** »[16]

قال ابن حجر [وزاد فيه "فإنها تطلع بين قرني الشيطان" وفيه إشارة إلى علة النهي عن الصلاة في الوقتين المذكورين-أي بعد الصبح وقبل المغرب – وزاد مسلم من حديث عمرو بن عبسة "وحينئذ يسجد لها الكفار" فالنهي حينئذ لترك مشابهة الكفار وقد اعتبر ذلك الشرع في أشياء كثيرة ، وفي هذا تعقب على أبي محمد البغوي حيث قال (إن النهي عن ذلك لا يدرك معناه وجعله من قبيل التعبد الذي يجب الإيمان به][17].وقال النووي [قالوا ومعناه أنه يدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات ، ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة وحينئذ يكون له ولبنيه تسلط ظاهر وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم فكرهت الصلاة حينئذ صيانة لها كما كرهت في الأماكن التي هي مأوى الشيطان][18].

وبحديث ابن عمر كذلك أن رسول الله ﷺ قال « **لا يتحرى أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها**»[19].

وبحديث أبي هريرة قال نهى رسول الله ﷺ عن صلاتين : بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس[20] .

وبحديث ابن عمر قال : أصلي كما رأيت أصحابي يصلون ، لا أنهى أحدا يصلي بليل ولا نهار ما شاء غير أن لا تحروا طلوع الشمس ولا غروبها[21] . وبحديث عمر بن الخطاب أنه كان يقول : لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإن الشيطان يطلع قرناه مع طلوع الشمس ويغربان مع

مع غروبها وكان يضرب الناس على تلك الصلاة[22]

وبحديث عقبة بن عامر الجهني قال : ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن أو أن نقبر فيهن موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهير حتى تميل الشمس وحين تضَيَّفُ الشمس للغروب حتى تغرب[23].

وبحديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « **إذا بدا حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تبرز وإذا غاب حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تغيب** »[24].

وبحديث أبي بصرة الغفاري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بالمخمص فقال « **إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين ، ولا صلاة حتى يطلع الشاهد** » والشاهد النجم[25]

وخلاصة ما ينتهي إليه التحقيق :

1 – أن صلاة ركعتين بعد الغروب قبل المغرب مستحبتان وفيهما خير كثير مع التعجيل لما مر ولما ورد من قول الحسن البصري [حسنتين والله لمن أراد الله بهما][26] بشرط أن تخفف الركعتان ، قال ابن حجر [ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تخفيفهما كما في ركعتي الفجر ، قيل والحكمة في الندب إليهما رجاء إجابة الدعاء لأن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد وكلما كان الوقت أشرف كان ثواب العبادة فيه أكثر][27].

2 – أن صلاة ركعتين قبل الغروب قبل الصلاة مكروهتين لما ورد عن النبي من النهي عن الصلاة في ذلك الوقت ، فإذا تحقق الغروب كان الأولى بصلاة الفريضة لا النافلة لضيق وقت المغرب ، قال القرافي في الذخيرة [قال في الكتاب (وقتها – المغرب – غروب قرص الشمس دون الشعاع إلى حين الفراغ منها للمقيمين)][28] وقال [حجة المشهور : أن الأمة مجمعة على إقامتها – صلاة المغرب – في سائر الأعصار والأمصار عند غروب الشمس ولو كان ممتدا لفعلت فيها ما نفعله في الظهر وغيرها من التقديم والتأخير وأمكن أن يقال إن إجماعهم لوقوع الخلاف في امتداد وقتها الاختياري احتياطا لأن وقتها غير ممتد وهذا بخلاف سائر الصلوات][29] .

3 – أن صلاة ركعتين قبل المغرب مختلف فيهما بين فعلهما وتركهما ، ولا يضر فعلهما أو تركهما ، فإن فعلهما حرصاً على شرف الوقت وتحقق غروب الشمس وعدم فوات الفريضة كان خيرا وإن تركهما خوفاً من النهي النبوي كان خيرا ، ولا يضر فعل أمرين في كليهما طاعة للنبي ﷺ .

4 – أن الندب إلى صلاة ركعتين قبل المغرب هو ندب بالخصوص إلى التواجد بالمسجد قبل صلاة الفريضة لعدم التشاغل عنها ، وكدلالة على الحرص على النوافل في الأوقات التي لم يأتي فيها نهي بدليل أن الصحابة كانوا يبتدرون الركعتين قبل المغرب مع التعجيل فيهما فمن باب الأولى الحرص على النوافل في الصلوات التي لم يأتي فيها نهي وفي أوقاتها سعة للنافلة قال ابن حجر [مطابقة أنس للترجمة من جهة الإشارة إلى أن الصحابة إذا كانوا يبتدرون إلى الركعتين قبل صلاة المغرب مع قصر وقتها فالمبادرة إلى التنفل قبل غيرها من الصلوات تقع من باب الأولى ولا يتقيد بركعتين إلا ما ضاهى المغرب في قصر الوقت كالصبح](30) .

5 – أن صلاة ركعتين أو عدمهما يرجع إلى تحقق الغروب وعدمه وعدم فوات الفريضة ومراعاة فعل الناس للركعتين أو تركهما ، فإن كان الناس في مكان لا يصلونهما لعدم تحقق الغروب التحقق التام لخروج وقت النهي عن الصلاة فيه ، فإذا تحقق الغروب روعيت صلاة الفريضة لضيق وقتها ، كان ترك الركعتين أولى لمن يكون في مثل هذا المكان ، وذلك لسببين :

أ – لعدم التأكد من تحقق الغروب فإن تحقق كانت الفريضة أولى وذلك لدخول وقتها وضيقه ، فإن دخل المسجد قبل الصلاة استحب له أن يقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) قال النووي في الأذكار [قال بعض أصحابنا : من دخل المسجد فلم يتمكن من صلاة تحية المسجد إما لحدث أو لشغل أو نحوه ، يستحب أن يقول أربع مرات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فقد قال به بعض السلف وهذا لا بأس به](31).

ب – لعدم مخالفة الناس ، فإن كان الرجل وسط قوم يصلون الركعتين لتحقق وقت الغروب وذلك لوجودهم في منطقة يسهل فيها التحقق من الغروب كبلاد الشام والحجاز ، ووجد وقت بين الأذان والإقامة صلى الركعتين مع التخفيف فيهما ، وإن كان الرجل وسط قوم لا يصلون الركعتين لعدم تحقق الغروب ويرون بكراهيتهما لما صح عندهم من الدليل ، وإتباع المذهب وجب على الرجل عدم مخالفة الناس والأخذ بما أخذوا وترك ما تركوا إن صح لديهم الدليل ونفيت الحرمة من الفعل المأخوذ والوجوب من الفعل المتروك ، وقد روي أن الشافعي لما زار بغداد صلى بالناس فلم يقنت في صلاة الصبح إكراما ورعاية لخواطر الإمام أبي حنيفة – فقد ذهب أبو حنيفة إلى أنه لا يجوز القنوت في صلاة الصبح وذهب الشافعي إلى أنه سنة ولذلك يكون ترك الركعتين في وسط قوم لا يصلونهما خوفا من الكراهة وجب على المخالف لهم الأخذ بما أخذوا جبرا لخواطرهم ومراعاة لوحدة الصف

ودفع الفرقة ، وعدم صلاة ركعتين قبل المغرب مخافة الكراهة دليل على التمسك بالسنة ، وليس في تركهما نزع إلى الحرمة ولذلك فنزوع الرجل لما نزع له القوم دليل على رجحان فكره ورصانة عقله – قال الشاطبي في الموافقات [فرجع القولان إلى قول واحد بهذا الاعتبار ، فإذا كان كذلك فَهُمْ في الحقيقة متفقون لا مختلفون][32]. بمعنى أن فريقا يقول باستحبابهما –الركعتين –بعد الغروب وفريق يقول بكراهتهما قبل الغروب فهم متفقون أصلا ، ولكن يصير رجحان الفكر والعقل إلى ما عليه غالبية الناس في المكان المختلف فيه قصد جلب الموالاة والتحاب والتعاطف ، بمعنى عدم المخالفة ، فإن كنت مع قوم يصلون مع صحة دليلهم صليت مخافة مخالفتهم ، وإن كنت مع قوم لا يصلون مع صحة دليلهم لم أصلي مخافة مخالفتهم ، وقد روي عن مالك أنه جاءه رجل فقال له أصلي مع أناس لا يحسنون الركوع فقال له "اركع كما يركعون" خوفا من مخالفته لهم وإشعال الفتنة الملعون من أيقظها ، مع إمكان تعلم أولئك القوم للركوع الحسن مع الوقت ، فيصيب الرجل الحُسْنَيَيْنِ إن كان راجح الفكر بعدم مخالفتهم وفي الوقت تعليمهم حتى يعودوا يركعون كما يركع ، قال الشاطبي [ومن هنا يظهر وجه الموالاة والتحاب والتعاطف فيما بين المختلفين في مسائل الاجتهاد حتى يصيروا شيعا ولا تفرقوا فرقاً لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع ، فاختلاف الطرق غير مؤثر كما لا اختلاف بين المتعبدين لله بالعبادات المختلفة كرجل تقربه الصلاة وآخر تقربه الصيام وآخر تقربه الصدقة إلى غير ذلك من العبادات فهم متفقون في أصل التوجه لله المعبود وان اختلفوا في أصناف التوجه][33] .والله أعلى وأعلم .

---

1 –أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب الصلاة قبل المغرب تحت رقم (1183) وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب نهي النبي على التحريم إلا ما تعرف إباحته وكذلك أمره تحت رقم (7368).

2 –أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب الصلاة قبل المغرب تحت رقم (1184).

3 –أخرجه البخاري في كتاب الأذان باب كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة تحت رقم (625) وفي كتاب الصلاة باب الصلاة إلى الأسطوانة تحت رقم (503) وعند مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتين قبل صلاة المغرب .

4 – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتين قبل صلاة المغرب .

5 – فتح الباري شرح صحيح البخاري 88/3 .

6 – زاد المعاد في هدي خير العباد ص : 98 .

7 – فتح الباري 153/2.

8 – فتح الباري 154/2.

9 – فتح الباري 154/2.

10 – فتح الباري 155/2.

11 – نيل الأوطار 372/1 .

12 – شرح مسلم على النووي 349/3.

13 – فتح الباري 89/3 .

14 – فتح الباري 89/3 .

15 – فتح الباري 349/3 .

16 – أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس تحت رقم (582) وعند مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها.

17 – فتح الباري87/2

18 – شرح النووي على مسلم 339/3

19 – أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس تحت رقم (585)

20 – أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس تحت رقم (588) .

21 – أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب من لم يكره الصلاة إلا بعد العصر والفجر تحت رقم (589)

22 – أخرجه مالك في الموطأ كتاب القرآن تحت رقم (521) .

23 – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين .

24 – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

25 – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

26 – فتح الباري 155/2.

27 – فتح الباري 155/2.

28 – الذخيرة 15/1 .

29 – الذخيرة 16/1 .

30 – فتح الباري 155/2-156 .

31 – الأذكار ص:27 .

32 – الموافقات في أصول الشريعة 181/4.

33 – الموافقات في أصول الشريعة 181/4 .

جلسة الاستراحة

يختلف الفقهاء فيها ما بين قولين :

- القول الأول : أنها من سنن الصلاة ويستحب لكل واحد أن يفعلها .
- القول الثاني : أنها ليست من السنن ويفعلها من احتاج إليها .

فأما أصحاب القول الأول فيحتجون بثلاثة أحاديث :

-الحديث الأول : ما رواه مالك بن الحويرث أنه رأى النبي ﷺ يصلي فكان إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعدا وفي رواية حتى يستوي جالسا (البخاري) قال ابن حجر [فيه مشروعية جلسة الاستراحة] 430/2

-الحديث الثاني : ما رواه أبو حميد الساعدي من قوله (ثم ثنى رجله وقعد عليها حتى يرجع كل عضو إلى موضعه ثم نهض) (مسند أحمد) .وهذا لا وجه للاحتجاج به لاشتراط الاطمئنان، والمعلوم أن لا اطمئنان في جلسة الاستراحة.

-الحديث الثالث : ما رواه أبو هريرة من أن رجلا دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله (وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل ...ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا) (البخاري) .

وأما أصحاب القول الثاني فيحتجون بما يناهز الحديثين اقتصرنا في هذه الدراسة على حديثين فقط :

-الحديث الأول : ما رواه وائل بن حجر من أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من السجدتين استوى قائما .

-الحديث الثاني : ما رواه معاذ بن جبل من أن النبي ﷺ كان يقوم كالسهم .

وقد روي عن أبي أمامة أنه سئل عن النهوض فقال : على صدور القدمين على حديث رفاعة ، وفي حديث ابن عجلان ما يدل على أنه كان ينهض على صدور قدميه ، قال ابن القيم [وقد روي عن عدة من أصحاب النبي ﷺ وسائر من وصف صلاته ﷺ لم يذكر هذه الجلسة وإنما ذكرت في حديث أبي حميد ومالك بن الحويرث ولو كان هديه ﷺ فعلها دائما لذكرها كل من وصف صلاته] 77 . وتُعُقِّبَ عليه بقولهم [بأن السنة المتفق عليها لم يستوعبها كل واحد ممن وصف صلاته إنما أُخذ مجموعها عن مجموعهم] النيل 662/2 . وأضاف ابن القيم [ومجرد فعله ﷺ لها لا يدل على

لم يدل على أنها سنة من سنن الصلاة فهذا من تحقيق المناط في هذه المسألة] 77 .

مناقشة القولين :

أصحاب القول الأول يقولون بمشروعية جلسة الاستراحة وهي بعد الفراغ من السجدة الثانية وقبل النهوض إلى الركعة الثانية والرابعة طبقا لما ثبت عندهم من الأحاديث الثلاثة السابقة ، ويُرد عليهم في ذلك بـــ :

-الحديث الأول : وهو حديث مالك بن الحويرث ، بأن هذا الحديث ثابت غير أنه جاء في زمـــن معين بحيث رأى صلاة النبي ﷺ في آخر عمره فرآه قد جلس بعد السجدتين لبدن جـــسده عليـــه الصلاة والسلام لقوله ﷺ « لا تبادروني بالقيام والقعود فإني قد بدنت » فدل على أنه فعلها لهـــذا السبب وبذلك لا تشرع إلا في حق من اتفق له نحو ذلك من البدن أو المرض ، فيكون قد أصاب ما كان في حقه سنة لا في حق غيره من أصحاب الجسد القوي والصحة السليمة على أن مالك بـــن الحويرث توفي بالبصرة سنة 94هـــ أي ما يوافق 716م ورسول الله ﷺ قد ولد ســـنة 51 قبـــل الهجرة أي ما يوافق 571 م وتوفي سنة 11 للهجرة ما يوافق 633م فإذا كان مالك بن الحويرث قد توفي سنة 94 للهجرة ما يوافق 716م على حسب ما ذكره ابن الأثير في أسد الغابة فإن مالكا يكون قد عاش ثلاثا وثمانين سنة (83) بعد وفاة النبي ﷺ وهو عمر طويل ، وبـــذلك يتحقـــق أن رواية هذا الحديث قد جاءت في آخر عمر الرسول ﷺ وأول عمر مالك ، وهو ما أشار إليه ابـــن الأثير بقوله (شببة) قال [قدم على النبي ﷺ في شببة من قومه] فيكون عمره عند رواية الحديث سبعة عشر سنة (17) إن عاش مائة عام (100) وإن مات قبلها فيكون قد روى الحديث قبل تلك السن أي بأقل من سبعة عشر عاما .

- الحديث الثاني : وهو حديث أبي حميد الساعدي ، واحتج عليه الطحاوي بمجيئ بعض الروايات عن أبي حميد نفسه بلفظ [فقام ولم يتورك] كدليل على أن حديث مالك بن الحويرث جاء وصفا لصلاة رسول الله التي صادفته فيها علة فقعد لأجلها لا أن ذلك من سنة الصلاة ولو كانت مقصودة لشرع لها ذكر مخصوص ، وتُعُقّبَ على الطحاوي بأن الأصل عدم العلة وبأن مالك بن الحويرث هو راوي حديث (صلوا كما رأيتموني أصلي) فحكايته لصفة صلاة النبي داخلة تحت هذا الأمر وبأن حديث أبي حميد المذكور على عدم وجوبها فكأنه تركها لبيان الجواز ، وبعدم تخصيص الذكر لها من أجل أنها جلسة خفيفة جدا استغنى فيها بالتكبير المشروع للقيام وأن روايات أبي حميد لم تتفق على

نفي هذه الجلسة كما فهمه الطحاوي .

-الحديث الثالث : وهو حديث أبي هريرة ، وتُعُقّب على هذا الحديث بقولهم أن البخاري أشار إلى وجود وهم فيه بقوله [قال أبو أسامة في الأخير "حتى يستوي قائما" ويمكن أن يحمل إن كان محفوظا على الجلوس للتشهد] قال الشوكاني [فشكك البخاري هذه الرواية التي ذكرها ابن نمير بمخالفة أبي أسامة وبقوله " إن كان محفوظا"] 657/2 . قال ابن حجر [وصل المصنف رواية أبي أسامة هذه في كتاب الأيمان والنذور كما سيأتي وقد بينت في صفة الصلاة النكتة في اقتصار البخاري على هذه اللفظة من هذا الحديث وحاصله أنه وقع هنا في الأخير "ثم ارفع حتى تطمئن جالسا" فأراد البخاري أن يبين أن راويها خولف فذكر رواية أبي أسامة مشيرا إلى ترجيحها ، وأجاب الداودي عن أصل الإشكال بأن الجالس قد يسمى قائما لقوله تعالى (ما دمت عليه قائما) وتعقبه ابن التين بأن التعليم إنما وقع لبيان ركعة واحدة والذي يليها هو القيام يعني فيكون قوله "حتى تستوي قائما" هو المعتمد ، وفيه نظر لأن الداودي عرف ذلك وجعل القيام محمولا على الجلوس واستدل بالآية ، والإشكال إنما وقع في قوله في الرواية الأخرى "حتى تطمئن جالسا" وجلسة الاستراحة على تقدير أن تكون مرادة لا تشرع الطمأنية فيها ، فلذلك احتاج الداودي إلى تأويله ، لكن الشاهد الذي أتى به عكس المراد والمحتاج إليه هنا أن يأتي بشاهد يدل على أن القيام قد يسمى جلوسا وفي الجملة المعتمد للترجيح كما أشار إليه البخاري وصرح به البيهقي وجوز بعضهم أن يكون المراد به للتشهد والله أعلم] 53/11 .

وغاية ما ينتهي إليه التحقيق :

- سقوط استدلال أصحاب القول الأول بالحديث الثاني لاشتراط الاطمئنان فيه وذلك يخالف جلسة الاستراحة وبالحديث الثالث لوقوع الوهم فيه فلا يبقى لهم إلا حديث جاء وصفا لا قولا مع وقوع النقاش فيه إذ لا يسلم من تأويل أو ترجيح .
- أن القول باستحباب جلسة الاستراحة يحتاج إلى دليل واضح ، والدليل قول أو فعل أو تقرير ، والقول معدوم في جلسة الاستراحة ، والرسول لم يقر صلاة أحد فيها جلسة استراحة ، وأما العمل فإن مالكا بن الحويرث رأى عمل الرسول في الصلاة بعد أن جاوز الرسول الخمسين من عمره فيكون العمل هنا مخصوصا بحالة رسول الله التي قد صح فيها قوله « لا تبادروني بركوع ولا سجود فإنه مهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني إذا رفعت ومهما

أسبقكم به إذا سجدت تدركوني به إذا رفعت إني قد بدنت » وفي صحيح ابن خزيمة عن معاوية قال سمعت النبي يقول « إني قد بدنت فلا تبادروني بالركوع والسجود » ، إذن فلا يخلو احتجاج أصحاب القول الأول من حديث الوصف وقد تطرق إليه التأويل ، وأحاديث أصحاب القول الثاني وصف لم يتطرق إليه التأويل لعدم وجود علة التأويل ، مع وجود روايات أخر عن الصحابة والتابعين وتابعيهم لا وجود فيها لجلسة الاستراحة .وحديث أبي هريرة هو الفصل في المسألة والذي أزال البخاري الوهم منه بقول أبي أسامة ، فيكون ما جاء فيه هو المأخوذ وما لم يأت فيه هو المتروك أو كما قال الشوكاني [وقد جزم كثير من العلماء بأن واجبات الصلاة هي المذكورة في طريق هذا الحديث واستدلوا به على عدم وجوب ما لم يذكر فيه] 657/2 .فيكون الحديث الثاني من القول الأول حجة لأصحاب القول الثاني عند زوال الوهم منه .

- أنها إن ثبتت تكون من باب الاستحباب الذي لا يجوز فيه النزاع والشقاق وتعمد المخالفة وإيقاظ الفتنة وفاعلها بذلك الغرض آثم بدون شك .
- أن الاتيان بها من غير فعل الإمام إن كان الآتي بها مأموما فُهِمَ منه مخالفة الإمام ، وقد علم أن المأموم يدخل مع الإمام في الصلاة بنية الإتباع وإلا بطلت صلاته ، وقد صح عن النبي قوله« إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا » فالأحرى بالمأموم أن لا يأتي فعلا يخالف فيه إمامه خوفا من بطلان صلاته .
- أن إتيان الرسول بها جاء لعلة صادفته في الصلاة فتكون السنة في ذلك لمن كان بمثل حال رسول الله من علة كالمرض أو البدن في آخر العمر ، لا أن يأتي بها رجل صحيح الجسم قوي البنية ، فإنه لا وجه للأخذ بها في تلك الحالة .
- أن الإشكال زائل بالأساس إذ أصحاب القولين اتفقا على تسميتها "جلسة الاستراحة" فيزول بذلك الاختلاف بكون فعلها لا يكون إلا لمن تعب عن طول قيام أو مرض أو كبر سن فأراد الاستراحة لا من له جسد إن صدم به حائطا أسقطه وجاء لصلاة جُلٌّ وقتها خمس دقائق فأراد جلسة الاستراحة فإنه استهتار بالصلاة لا حرصٌ على السنة .

مصائب قوم عند قوم فوائد

كثيرًا ما تَنْجلي الأزمات التي يمر بها أيُّ مجتمعٍ كيفما كان ، عن منافع تعود عليه بشتى المصالحِ والمكاسب حتى وإنْ كان الإنسان العامِّيُّ يرى أنَّ في تلك الأزمات المذبحَ الأكيد لأمته ومجتمعه ، لكن ما فتئ يتراجع عن رأيه ذاك إنْ أمدَّ الله في عمره سنين عددا ، كي ينظر إلى ما أفرزت عنه تلك الأزمات والمعوقات .

إنني بالتأكيد مع كل رأي يقول بأن الأزمات والمعوقات والمشاكل هي سلبيات وتحمل مضارا كبيرة.

ولكني بالتأكيد أيضا أُنافي وأُجانبُ كلَّ من يقول بأن تلك الأزمات لا تتولد عنها إلا المفاسد والمضار ومن الاستحالة أن تأتي بمنافع ومكاسب لأيِّ مجتمع عمَّته تلك البلوى أو المصيبة .

أن هذا القول لا يصدر من رجل خَبِرَ التاريخ وعَلِمَ تداول أيامه وتصفح مجلدات ومصنفات أربابه الذين أعياهم التاريخ من أن يتصفحوا غير كتبه أو يَلِجُوهُ بغير تجربة كاملة ومِرَاسٍ شديد في خبرة الظروف الحالكة والمراحل العنيفة ، وقد علق البخاري من كلام معاوية أنه قال : « **لا حكيم إلا ذو تجربة** » وهذا في باب الأدب في صحيح البخاري وقال سفيان الثوري : « **لاعب ابنك سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا ثم اتركه مع التجارب** » .

أو يصدر عن رجل كان نائياً في صغره عن ملاعبِ الصبيان ومراتع لهوهم ، فلا زلتُ أذكر أنه كان من النادر أن تجد في ربوع المدرسة كلها ونحن صغار ، طفلا لا يحفظ مقولة شهيرة ، ربما لم نكن نعلم مغزاها في وقتنا ذاك ، ولكن كانت تنتظر أن يشتد عُودنا ونَشِبَّ عن الطوق حتى تُؤْتِينَا أُكلها ، وذلك ما كان ، إنها مقولة : « **مصائب قوم عند قوم فوائد** » ، إن المُسْتَجْلِيَ لغُمومِ هذه المقولة الشهيرة ، والناطِح لسحابها والنافذ لمكامن جوهرها ، لَتَتَعَاقَبُ أمام ناظريه قصصٌ شتى ووقائع لَمَّى ، ما وَدّعَهَا التاريخ وما تركها هملا ، وإنما سجلها وقيدها ، إمَّا في سجل البطولات والملاحم وإمَّا في سجل الخسائر والهزائم .

أما كان طوفان سيدنا نوح عليه السلام سيلاً جارفاً على المكذبين الضالين المستهزئين ، وكان في

ومكايدهم وارتاحت من أعمالهم وفسقهم وكفرهم ، وتلك الأرض قد ارتاحت هي كذالك من وَطْأة الكافرين الشديدة عليها ، ومن رجسهم وفسادهم فوق ظهرها فما كانت إلا أن فجّرت عيونها فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ .

الكثير منا بلا ريب ينظر إلى طوفان نوح على أنه شرٌّ وعقابٌ وعذابٌ ، وهذا صحيح بلا شك ، ولكنه في حد ذاته خير ورحمة وفُرْجَةٌ مِنْ أَزْمَةٍ أو كما يقال : « **كم نقمة حملت في طياتها نعمة** » وهذه نقمة على من قوم نوح ، حملت في طياتها نعما عديدة للمؤمنين المخلصين من قومه ، فالفئة المستضعفة التي آمنت بنوح عليه السلام كانت تعاني الأمرين من جراء إيمانها ذلك، فكانوا يتعرضون للأذى الشديد من الذين كانوا لا يرجون لله وقارا ، وهددوا سيدنا نوح عليه السلام فقالوا : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » [1] وقد روي عن ابن عباس قوله : (كان نوح يُضْرَبُ ثم يُلفُّ ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى ولما أَيِسَ منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه فقال لأبنه : يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرَّك ، فقال له ابنه : يا أبتِ مكّني من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا فشج بها رأسه وسال الدم على وجهه فقال : يا رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم وإلا فصبرني إلى أن تحكم فأوحى الله إليه :« أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [2])[3] فما كان نوح عليه السلام إلا أن وجه القَصد إلى الله وأردفَ قائلا : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » [4] لا شك أن هلاك هؤلاء الذين ظلموا هو نعمة للبشرية في عهد سيدنا نوح عليه السلام إذ أنها ستحيى حياةً طيبة هادئة مطمئنة على أساس عبادة الله والإخلاص له في ذلك ، فهي نقمة على قومٍ نعمةٌ على آخرين : «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ »[5]. أليس هذا الموت بلية من البلايا ومصيبة من المصائب : « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ »[6] ففيه فقدُ الأحبة وفراق الإخوان بل هو هازم اللذات والمفرق للجماعات ، ولكن لابد منه للتنعم بالجنات والأنهار والحور والفواكه وما لذ وطاب من الطعام والشراب وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فالموت مصيبة ولا ينفع معه إلا قول : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[7] ولكنه في حد ذاته نعمة عظيمة للبشرية جمعاء ، لنا نحن

المسلمون بأننا به نلقى ربنا خالقنا ومبدعنا ، وننظر إليه كما ننظر إلى القمر ليلة البدر ، ولا أعدل من ذلك فضلا ونعمة . وللبشرية جمعاء ، فتصور أن الله عز وجل لم يضع الموت، فلتَكَاثَرَ الناسُ ولتدافعوا ولَصَعُبَتِ الحياة بدون شك ، فما إنْ تخرج من بيتك إنْ وَسِعَكَ هو أيضا وتَدَاحَسَ عنك أبنائك ، فإنك ستجد خلف بابك طابورا من الناس ينتظرون دورهم ليضعوا أقدامهم على أول خطوة تفرغ من وطأة الذين قبلهم . إن الناظر للموت بهذه العين ليسجد لله شكرا.

أليس لنا نحن المسلمين في المصيبة الأجر والغنيمة ، « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» [8] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر وكان خيرا له**)[9] ويقول صلى الله عليه وسلم : (**ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة**)[10] ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة أكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل ما دام محبوسا في وثاقي**)[11] فسبحان من سير في المصائب فوائد.

لما خسر المسلمون أمام الصليبين في الحملة الصليبية الأولى ، أصابتهم مصيبة الذل والهوان والخذلان حتى ظن الصليبيون أن الجو قد صفا لهم في المشرق الإسلامي ، وأنهم قد حققوا مرادهم ، حتى أخرج الله لهم من خذلان المسلمين وعجزهم رجلاً لم يعرفوا من أيِّ بوتقةٍ خرج ولم يفيقوا إلا على وقع الهزائم تتلاحق عليهم في مدينة الرها على يد رجل عظيم هو **عماد الدين زنكى** وابنه **نور الدين محمود** ، حيث أنه لما انتصر الصليبيون أحكموا الخناق على الأسر العربية المسلمة وتناسوا أن الإسلام لا يحكمه عرق أو جنس ، وأهملوا غير العرب ممن فتح الإسلام قلوبهم له ، حتى خرج لهم من بيت آل زنكى ما لم يكونوا يحتسبون . وجريان العكس على الطبيعة في المنطق أمرٌ مألوف ومعروف ، فلما أصابت ملوك الطوائف مصيبة حب الجاه والمنصب والسلطة والرياسة ، كانت مصيبة المسلمين تلك فائدة ما بعدها فائدة على النصارى وغيرهم من ذوي الملل والنحل الضالة ، فجمعوا شتاتهم وأبرموا أمرهم فعادوا كرةً على المسلمين أنستهم السنين التي عاشوها في الأندلس ، فشكلوا اتحاداً كبيراً ضم مملكتي أرجوان وقشتالة ، وتوجاه بزواج إيزابيلا ملكة قشتالة من فرناند ملك أرجوان ، وكان الحلم الذي يراود الزوجين الملكين الكاثوليكين ليلة زفافهما هو دخول

غرناطة وقضاء شهر العسل في قصر الحمراء ورفع الصليب فوق برج الحراسة في غرناطة ، في نفس الوقت دبَّ خلاف كبير داخل مملكة غرناطة لا سيما بين أبناء الأسرة الحاكمة وثم تقسيم مملكة غرناطة إلى قسمين : قسم في العاصمة الكبيرة (غرناطة) يحكمه أبو عبد الله محمد علي أبو الحسن النصري ، وقسم في (وادي آش) يحكمه أبو عبد الله محمد المعروف بالزغل .وهجم الملكان الكاثوليكيان هجومهما على (وادي آش) سنة 894 هـ ونجحا في الاستيلاء عليه ، وأرسلا إلى السلطان أبي عبد الله النصري يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء الزاهرة فأبى فضربا عليه حصارا دام سبعة أشهر انتهى بتسليمه غرناطة على طبق من ذهب وركب سفينته مودعا آخر أرض تنفست في مناخٍ إسلامي في أوروبا بعد ثمانية قرون عاشتها في ظلال الإسلام ، فبكى أبو عبد الله ملكه الضائعَ وتلقى من أمه الكلمات التي حفظها التاريخ : { **ابكِ مثل النساء ملكا لم تحفظه حفظ الرجال** }[12]

لاشك أن منفعة النصارى من مصيبة المسلمين تلك كانت أنفع وأكبر ، فقد رفعوا راية الصليب على قصر الحمراء وحكَّمُوا محاكم التفتيش في المسلمين ، وسفكوا الدماء واستحيوا النساء وذبحوا الأطفال وحرّقوا الكتب والمجلدات وعاثوا في الأرض الفساد حتى إنه قيل إن طيور الوحش شبعت من لحم المسلمين المرمية جثثهم على سواحل البحر .

لاشك أنّ لهم منفعة في ذلك ، ولا شك فلنا أيضا منفعة من المصيبة تلك ، وأول منافع المصائب أنك تأخذ منها العبرة والدلالة ، يقول ربي عز وجل « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »[13] وما جاء لقوم سعد دون قوم زيدٍ إلا ليعتبر قوم زيدٍ مما جرى لقوم سعدٍ ، فنقمةُ قوم سعدٍ كانت نعمةً لقومِ زيدٍ ، وقد قيل قديما : **اجلس حيث يؤخذ بيدك وتَبَرُّ ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتُجَرُّ** . وقد جاء في كتب الأدب أن رجلا رأى وزيرا من الوزراء في عهد بني العباس ، وكان هذا الوزير قد تولى أبوه الوزارة فقتل وتولاها قبله جده فقتل فتولى هو الوزارة بعد أبيه ،

فقال الرجل : سبحان الله ، تولى الوزارة ؟

قالوا : نعم ، تولاها مع أنه يعلم أنها قتلت أباه وجده .

فقال الرجل : حماري أذكى منه .

قالوا : كيف ؟

قال : عثر حماري العام الفائت في مكان فلما أتيت إلى ذلك المكان انصرف منه .

ويقال أن الأسد جمع الذئب والثعلب وقال لهما : اذهبا وصيدا لي صيدا ، فذهبا فصادا أرنبا وظبيا وغزالا ، وأتيا إليه ، فقال : من يقسمها بيننا ؟

قال الذئب : أنا ، أما الغزال فلك وأما الظبي فلي وأما الأرنب فللثعلب .

قال الأسد : كذبت ، فضربه الأسد بمخلبه فخلع رأسه ، ثم قال : اقسم أيها الثعلب :

قال الثعلب : الأرنب فطور لك والظبي غذاء لك والغزال عشاء لك .

فقال الأسد : من علمك هذه الحكمة ؟

قال الثعلب : رأس الذئب المخلوع .

فموت الذئب كان حياة للثعلب .

وسبحان من يخرج من الميت الحي ، فاعتبر أيها الحي من موت الحي ما دام فيك قلب ينبض فيوما سيكون موتك عبرة لحي بعدك .

---

1 – سورة الشعراء الآية 116

2 - سورة هود الآية 36

3 – المستطرف ، 120/2

4 – سورة نوح ، الآية 26-27

5 – سورة هود ، الآية 48

6 – سورة المائدة ، الآية 106

7 – سورة البقرة ، الآية 156

8 – سورة النساء ن الآية

9 - صحيح : رواه مسلم

10 - صحيح : صحيح الجامع : 5758

11 - صحيح : صحيح الجامع : 5761

12 - دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية للدكتور عبد الحليم عويس

13 - سورة ق ، الآية 37

العقد الضائع

أفرزتِ الحالةُ المزرية التي تعيش فيها الأمة العربية والإسلامية تساؤلاتٍ عدةٍ حول مصيرها وكيفية النجاة من هذا الوضع الخانق الذي لربما سيترك فيها جراحا تَنْكَى لها الأعداء وتستقطب الذباب الأممي من شتى أصقاع المزابل العالمية حتى تسقط على جرح الأمة آخذة منه الدمَ ناقلةً إليه المرضَ.

ولعل كثيراً من الخبراء والمحللين سواءٌ الأجانب أو الذين رضعوا من حليب الأمة وهو يدرسون مسار الأمة تاريخياً وفكرياً أعطوا نتائج لما ستروم إليه الأوضاع في المستقبل فكانوا بين التحذير والإنذار، وكأنهم قد رقبوا قنبلةً هي على وشك الانفجار، فساروا يهرعون في الناس أن أنقذوا أنفسكم وأهليكم .

لكن إذا صح قولهم وقبلت دراستهم على سبيل التخمةِ والشبَعِ لا على سبيل الجوع،

إلى أين نفر ونحن أهل هذه الأمة ؟؟؟

ومن أين نفر إذا كانت النار التي سنفر منها وقودها أبناؤنا وزوجاتنا ؟؟؟

أنرتمي في أحضان الغرب ونرضع من حليبهم ونحن قد نبتت لنا النواجذ ؟؟؟

أنقبل بسياستهم وهي قد ذبحت أبناءنا واستحيت نساءنا ؟؟؟

أهذا ما خَلُصَتْ إليه دراستكم وبحثكم ؟؟؟أن الأمة الإسلامية ستنفجر لأنها سارت على الطريق الخطأ ، أهذا ما أفرزته لنا سيالتكم العصبية ؟؟؟ بئس السيالة تلك إذن ...

إن هذه الأمة لن تحتاج إلى دراسةٍ نابعة من أولئك الذين لايحكمهم دِين ولا تضبطهم ملة ،أو إلى نتائج خَلُصَتْ إليها أفكار من جعلوا أنفسهم قنواتٍ يمر عبرها الفكر الصهيوني والرجعي بكل ما يحمله من بؤسٍ ومرضٍ وخداعٍ وتزييفٍ ومكرٍ وتقتيلٍ وإرهابٍ إلى الإنسان المسلم .

إننا أمة قائمة بذاتها ،لها منهجها وطريقها، ولها تضحياتها، على الرغم من ضيق الخناق عليها ، إلا أنها في بؤبؤة القنينة، وستخرج يوماً إلى طليعة التاريخ تغير مساره ، وتملأ آذانه ، وتغرق أوداجه ، ليس بالتقتيل كما فعلوا ، ولا بالإرهاب كما نحوا ، وإنما بالعدل تسطره ، وبالإخاء تعدله ، وبالمساواة تضبطه . أيا تاريخ أنت تائهٌ ضالٌّ ، ولكن لك رجعةٌ يوم تقوم الأمة على أصولها ،داعيةً إلى رياضها . ذلك يوم لم يعد بعيدا ، فأصداؤه تُسْمَعْ ، ورياحينُهُ تُشَمُ ، وفَجْرُهُ يَنْشَقُ ، وصُبْحُهُ يَتَنَفسْ ، ألا فهل بحثتم أنتم عن مفر تفرون إليه ؟؟؟

إن هذه الأمة لن تحتاج إلى إنسان عرف حقوق الإنسان سنة *1948* ليريها الطريق ، فإن الأب لن يحتاج إلى رضيعه الصغير كي يعلمه المشي ، فإن ذلك مخالفة للطبيعة واستحالة في الوقوع ، لكنهم أبوا إلا أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم يعلمون زيغ أفكارهم ، وزهوق آرائهم ، ووجب عليهم أن يضعوا أمراً مهماً نُصْبَ أعينهم ، وحلقة في آذانهم – حتى لايقولوا قد خُتم على أبصارنا فلا نرى وعلى أسماعنا فلا نسمع – أنهم يوم كانت النُخَامَةُ تَدنُ من أنوفهم ، والأوساخُ من أجسادهم ، وكانوا لايفترقون عن الخنزير في أطعمتهم – ولذلك يحبون الخنزير ويعشقونه ولا يبغون عنه فكاكا ، لأنه قد وانسهم في عصور الظلمة والتخلف ، فهو صديق الطفولة كما يقال – ولا يعرفون رباً ويعبدون حجراً وشمساً وقمراً – ويا لبعد مابين العبادتين ، فهم قد عبدوا الحجر وظنوه إلها ،والعربُ عبدوا الحجر وظنوه مقرباً – لايعرفون طرق التعبير ولا آداب المجلس، كانوا كالأنعام بل أضل سبيلا، يوم كانوا يعيشون في البوادي ينقرهم الدُجَاجُ وهم على بطونهم مبتوخين ،ويسمون الحصان وحشا ، يوم

كانوا كذلك كان الصبي المسلم يُحَابهُ القلم والقرطاس تحت اسطوانات المساجد ، يوم كانوا كذلك كانت نساؤنا لاتفترق عن زهرات السهول النضرة جمالا في رياض الأندلس .

يوم كانوا كذلك، كان رجالنا يلعبون بإدارة المياه في ساعات الحوائط، يوم كانوا كذلك، كان المسلمون قد فتحوا نصف الأرض بمن كانوا يسمونه وحشاً. بل حتى و العربُ في أمواج الجاهلية يرتعون، كانوا أرقى الأممِ وأحسنها نظاماً ، اسأل أقرب دارس للتاريخ يجلس قربك ولو كان منهم – ولادةً أو رضاعةً – فسيقول كما قال العالم الإيطالي دوزي : { **إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفة فقط بل بالفطرة والغريزة حتى حققوا بادئ ذي بدء مبادئ الثورة الفرنسية الشريفة وهي الحرية والمساواة والإخاء .. لقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ويقول (لا أعرف مولى غير مولى العالم) إن هذه المبادئ عند العرب هي أفضل مما عند الأوروبيين ..وربما كانت أخلاق العرب أسمى من أخلاقنا – من غير شك – ونفوسهم أكبر من نفوسنا – مافي ذلك ريب– وهم أكثر ميلا إلى العظمة الإنسانية** } وكذلك قالت (بلنت) و(**مسيوشارم**)و(**مسيودوفوجاني**) وان شئت فارجع إلى كتاب (**حضارة العرب**)لصاحبه (**غوستان لوبون**) واسألهم وغيرهم من أبناء جلدتنا عن المجتمع المكي قديما قبل مجئ الإسلام كيف تمكن من استقطاب حركة التجارة الدولية والمحلية في الجزيرة العربية آنذاك، وحقق انتعاشاً اقتصادياً ملحوظاً في التجارة والعمران . واسألهم عن القبائل العربية يوم كانت مؤسسةً ديمقراطيةً سجل من خلالها الإنسان العربي عددا من الفضائل الإنسانية، :ألم يكن قديما بإمكان العربي أن يقابل شيخ قبيلته على قدم المساواة والحقوق ؟ من ينكر هذا. بل العرب اتخذوا خدمهم إخواناً ، ألم يقل (**مسيو آيو**) أن الرقيق في الحياة العربية بلغ مكانة عالية :(**لايكاد المسلمون ينظرون إلى الرقيق بعين الاحتقار فإن أمهات سلاطين آل عثمان وهم من زعماء الإسلام المحترمين من الإماء ولا يرون في ذلك ما يحط من قدرهم**) ألم يكن عند العرب دارٌ فيها تحل المشاكل وتفصل فيها المهام وتجمع فيها الكلمة، يقال لها دار الندوة ؟؟ ألم يكن الرجل البسيط في مكة إذا ظلم نادى في القبيلة بظلمه فتنتصر له القبيلة أجمعها، وأن كان ظالمه من الأكابر ؟؟ ألم يكن للعرب جهاز إعلامٍ قوميٍ قويٍ يذودُ عن البلاد ويدافع عن الأعراض يقال له الشاعر ؟؟ أينكر التاريخ أن الأمة العربية هي أول أمة وضعت معرضاً للكلمة في تاريخ البشرية جمعاء في سوق عكاظ ..

فقل لي بربك ، متى عرفوا الحضارة ؟؟؟

لقد ذهلت يوما وأنا أنظر إلى أناس غربيون يسمونهم ***خبراء الأسر*** يعلمون نساءنا في المحاكم كيف يعيشون وكانت تترأس ذالك الوفد الغربي إمرأة من الولايات المتحدة الأمريكية وجهها أَمْشَطُ أَفْظَعُ أَمْطَعُ ،لاتعرف كم لزوجها من عشيقة ،وربما أجلست كلبها في موضع زوجها ،هذه تري نساءنا كيفية المحافظة على الأسرة ، إن هذه لهي الطامة الكبرى والمصيبة العظمى.

إننا لن نحتاج إلى دارس أو باحث يوصلنا ألى أن نكون ذنباً لكلب نجسٍ ، ولو كانوا من أبناء جلدتنا أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ** *دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها* ** قيل : صفهم لنا يارسول الله قال:** *هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا* ** .

نحن أمة لها علماؤها ودارسوها وباحثوها ، ربما قد غيبوا أو ماتوا أو قتلوا ، ولكن مازال لصوتهم وجود ولندائهم صدىً ، فيحسبهم الجاهل أمواتاً من طول السنين ، فهذه كتبهم قد ملأت مكتباتنا وهذه أفكارهم قد أنارت طريقنا ، فكيف نحتاج إليكم وفينا من فينا.

هؤلاء علماؤنا قد درسوا تاريخ أمتهم وبينوه وحللوا الخلل وعاينوه ووضعوا أيديهم على الداء فقالوا (**أما عرب اليوم فإن الاستعمار الثقافي أحدث تخريبا شديدا في ضمائرهم وأفكارهم وربما رأيت الواحد منهم يبلغ الأربعين أو الخمسين من عمره ولا يعرف كيف يصلي أما حصيلته من سائر المعارف الإسلامية فتتذبذب عند درجة الصفر وهذا الجيل الفارغ القلب واللب صيد سهل للمذاهب المادية أو للمبشرين وسماسرة الغرب لأنه مهما كبرت الوظائف التي وضع فيها لم يتجاز مرتبة الطفولة من الناحية الدينية**) رحمك الله يا إمام .

هؤلاء هم علماؤنا والنجوم التي نهتدي بها في حلوك الليل وظلمته، قد بينوا لنا الخلل والداء ووصفوا لنا الدواء :(**ليس أمام العرب إلا طريقٌ فذ لتطهير أرضهم وطرد عدوهم واستعادة النضرة إلى وجوه كساها الهوان ،هذا الطريق هو العودة إلى الإسلام ظاهرا وباطنا وترسم خطا السلف الأول في صدق الإيمان وحسن العمل**) .

نعم ورب الكعبة إن هذا لهو دواؤنا مالنا فيه من شك، ولن يعجز الإسلام على القيام إن نحن وطدنا الأرض وأرسينا المائل منها ، فهو قد نقل فئاماً من الناس الرحل كانت تائهةً في ربوع الصحاري تساير الهوام إلى رجال يطلبون العلى ويشيدون أبدع الحضارات .فلن يعز عليه أن ينقل قوم قد أضاعوا يوماً أو بعض يو مٍ، كالمرأة الحسناء، سقط عقدها في ظلمة الليل فحثت الأرض تبحث عنه قليلا ثم تضعه فوق عنقها إكليلا .

الجريدة الإسلامية بين ملكية المفكر وحرية الباحث

لعل أبرز ما يشد انتباه القارئ أثناء تصفحه لأحد البحوث أو الدراسات الفكرية : الغياب الشبه التام في هوامش ومراجع ذلك البحث و الدراسة الإشارة إلى الجرائد أو الصحف المستفاد منها أو التي كانت مصدرا من مصادر البحث . ولعل السبب في ذلك يعود في نظر البسيط إلى :

- عدم مراعاة الملكية الفكرية والأمانة العلمية للجريدة ، وأخذ ما طاب ثمره وقل ثمنه دون إرجاع كلمة لصاحبها أو فكرة لمصدرها .
- عدم اهتمام الباحثين بالجريدة ومواضيعها :ويكون لسببين :

أ – القول بأن للجريدة غرض تجاري ترجوا تحقيقه من مختلف الأعداد المنشورة وبذلك تكون المواضيع اللافتة لانتباه الجماهير ذات أولوية خاصة وأسبقية في النشر على الصفحات الأولى ، فتكون المواضيع المنشورة تستهدف الربح ولا تستهدف الفكر ، ولذلك لا يلتفت إليها من الجانب العلمي والفكري ، وتبقى وسيلة من وسائل الترفيه لا من وسائل التعليم .

ب – القول بأن الجريدة لم يكن لها أي صلة بالعلم إذ أن اختصاصها الأول هو نشر الأخبار – صائبة أو مغلوطة – وتغطية الحوادث والوقائع ، فهي بذلك ابعد من مناقشة الأفكار والأطروحات والنظريات العلمية ، فتكون الجريدة إخبارية تراعي ضخامة الحدث أكثر منها علمية تراعي صدقية البحث وأثره .

عند هذا الحد يطرح القارئ تساؤله :

هل انعدمت البحوث القيمة والدراسات الفكرية المفيدة فيكون سببا لعدم تناول الجريدة لها ؟ الأمر الذي دفع الباحثين لعدم الاهتمام بها ؟ أم أن الجريدة هي ابعد ما يكون عن الفكر والعلم كما يقولون ؟

لاشك أن هذا التساؤل يدفعنا بشكل كبير إلى التكلم ولو بشيء يسير عن بدايات الصحافة وخصوصا الإسلامية ، لما هو ملاحظ من تجليات الواقع أن جميع ما يطرح من الأفكار والنظريات والدراسات تتناوله الصحافة الإسلامية بالخصوص دون نظيرتها العربية أو الحزبية أو غيرها من الأشكال المختلفة المختصة في ألوان المساحيق وجديد الموضات .

لقد تم وصف الصحافة أو الجريدة بالإسلامية لتميزها عن غيرها بدراسة شؤون المسلمين وقضاياهم

سواء الاجتماعية أو الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية ، إذ اختصاصها كل ما له صلة بالإنسان المسلم سواء من قريب أو من بعيد .

إن أبرز الصحف الإسلامية التي شهدت اهتماما خاصا من لدن المفكرين في السنين السابقة من يوميات أو أسبوعيات أو شهريات على سبيل المثال لا الحصر :

- "ثمرات الفنون" التي عاشت فترة طويلة في لبنان (1885 – 1908) .
- "المؤيد" الصحيفة اليومية المصرية التي صدرت سنة (1889 -12-01)
- "الاعتصام" لأحمد عيسى عاشور سنة (1929) .
- "اللواء" سنة(1900-01-02)
- "المنار" المصرية (1898) والتي أدخلت أسلوب المعالجة الحديث وقضايا المسلمين إلى الصحافة الإسلامية .
- "الحياة" (1899) ولم تلبث أن توقفت بينما استمرت المنار حتى توفي صاحبها رشيد رضا سنة (1935) .
- "العروة الوثقى" التي أصدرها الأفغاني ومحمد عبده في باريس (1884) والتي لم يصدر منها إلى (16) عددا ثم توقفت .
- "الهداية" للشيخ عبد العزيز جاويش وقد عنيت بتفسير القرآن وناسخه ومنسوخه .
- "مجلة الأزهر" لحسن رفقي وإبراهيم مصطفى (1889) وهي المجلة التي استأجرها ولـيم ولكوكس فيما بعد لنشر دعوته إلى العامية .
- "مجلة الإسلام" وهي أقدم مجلة إسلامية تحمل اسم الإسلام إذ بدأت سنة (1894) وتوقفت سنة (1914) ولم يسبقها إلا مجلة الأزهر .
- "الهدي النبوي" و"الإصلاح" لمحمد حامد الفقي (1937) .
- "دعوة الحق" المغربية .

وغيرها كثير.

من خلال هذه النظرة السريعة يظهر أن الجريدة لم تكن غائبة عن الإنسان المسلم ومعايشة قضاياه بل كانت حاضرة معه بكل أطياف اللون وأنواع الخط ، منذ أن كانت أوروبا تسمي الحصان "وحشا"، ولها فضل كبير في فهم ومناقشة قضايا مصيرية ، يقول أحمد على الشاذلي [إن الجرائد لها

من فضل ما يضيق عن حصر نطاقه بيان كاتب أو قلم شاعر إذ هي مصباح النهى ورائد الأمة ومرآة ذوي الأمور ، بها يعرضون ما انطوى عليه العالم شرقا وغربا ويهتدون إلى حجة الصواب بلا معاناة سفرٍ أو معاناة حركة فكم حملت مخترعات ووضعت أُسسا وربت بنين وبنات وهــذبت رجــالا وشيوخا وهي السبب الأكبر الذي نهض بالغربيين إلى هذا الحد الذي نراه حين اعتاضــوا بحـرب الأقلام عن حرب المدافع واستغنوا بالطروس عن الديناميت وبالحبر عن النوربين][1] (ص: 05) .

لقد كان من أبرز ما تؤكد عليه الجريدة الإسلامية في أعدادها طيلة سنوات صدورها إلى اليوم :

- إقامة أقوى الأدلة العلمية على أن الديانة الإسلامية هي روح العمران وقوام سعادة الإنسان بطرق لا تجعل للشكوك مجالا في الأذهان مستغلة في ذلك ما يخرج من الدراسات الفكرية والطبية والنفسية والعلمية والفلكية والاجتماعية وغيرها .

- تثبيت الأصول الدينية في العقول الطامحة من نشر بحوث تخص العقيدة والفكر والسلوك .

- مناقشة كل ما يطفو على السطح الإسلامي وإزالة ما يدعو إلى الشك بالبرهان والحجة والدليل .

وبذلك فقد كانت الجريدة هي أول من تصدى لمكر المستشرقين ودافع عن حمــى الــدين دفاعــا مستميتا أقوى وأعتى من دفاع الدبابات والرشاشات حتى أصبحت كل نفس مسلمة تكن الــشكر والمحبة العظيمة للجريدة الإسلامية أينما وجدت وإن كانت فتية ، فقد كانت جدتها عتيّة على محاربي الأمة والإسلام .

يقول الأستاذ فريد وجدي [إن مقصد المجلة هو الحيلولة بين مكاريت الإلحاد وأذهان أبناء المشرق ، وإننا وإن كنا لا نود فائدة مادية من هذه المجلة إلا أننا لا نود أيضا أن نخسر فيها كثيرا ، وإننــا لم نتشجع على تحمل هذه الخسائر المادية إلا لما نعلمه من شغف الخاصة والعامة بمطالعة ما نكتبه ، وقد اعتضدنا في سائر أبحاثنا ببراهين الفلسفة الغربية واستخدمنا نتائج أفكار قادتهــا وثمــرات كــدهم وكدحهم في تأييد أصولنا الإسلامية مراعاة لمطلوب العصر الحاضر ومجاراة للأميال العامة رأينــا أن اندفاق مدنية الغرب على الشرق ستجر معها ما يلابسها من سموم قاتلة ومكاريت هائلة فوجدنا أن أجل خدمة تؤدى للإسلام هي وقوف بعض بنيه على مآرب ذلك التيار المندفع بمصفاة من العلــم لتحجز ما تحمله من قذر وتترك السبيل لسلسبيله الصافي ليرده من بعد الورود بلا خوف ولا تحرج][1] (ص: 5) .

لقد أولت الصحافة الإسلامية اهتمام كبيرا لأحوال المسلمين فى العالم فتحدثت عن مسلمي بلغاريا

وروسيا والبوسنة والهرسك وتترانيا وإريتريا وانتشار الإسلام في العالم ، كما أولت اهتمام للغة العربية وإحياء التراث الإسلامي وإظهار الشريعة الإسلامية وإزالة الشكوك التي يروجها المشككون والطاعنون ، فكانت صحافة دعوة وفكر ، صحافة دعوة تحدثت عن التربية والتكوين الخلقي والاجتماعي للمسلم وقدمت له الأبحاث الناضجة البعيدة عن الخلافات والتيارات الفلسفية رغبة في إعداده إعدادا سليما .

وصحافة فكر اعتنت بالدراسات الفلسفية والمنطقية والإسلامية وغيرها وما يأتي من الغرب .

بذلك غطت الصحافة الإسلامية جميع القضايا الإسلامية المثارة في العصر والبيئة ووصلت إلى حد القدرة على كشف وجوه النقص والقصور في تلك القضايا ، وعالجت قضايا مصيرية كقضية فلسطين والقدس والهوية والعلم والتدين والحياة والتطور والأديان والحرية والحضارة والاقتصاد وغيرها .

لقد كان للصحافة الإسلامية الفضل في بروز أسماء لامعة في الفكر الإسلامي كمحب الدين الخطيب وأحمد عيسى عاشور ومحمد البشير الإبراهيمي ومحمد حامد الفقي ومحمد رشيد رضا وحسن البنا وصالح عشماوي وعبد الحميد بن باديس ومصطفى السباعي ومحمود أبو الفيض ومحمد محمد علوان ومحمد الخضر حسين وغيرهم كثير .

بهاته النظرة السريعة والموجزة يزول قول من يقول أن الجريدة الإسلامية لم تتناول القضايا الفكرية أو كانت غائبة أثناء احتدام الدراسات والنظريات ، ولا تخلوا أي جريدة من الجرائد الإسلامية المعاصرة من تناول موضوع فكري أو علمي يكتسي صبغة عالمية أو إسلامية ، والقارئ على المجرب في تصديق هذا ، وله بين يدي التاريخ من جريدة "الهداية" إلى جريدة "المحجة" الأعداد الكبيرة التي تؤكد تناول الجرائد الإسلامية للمواضيع العلمية المهمة .

وبذلك أيضا يتبين أن المواضيع المناقشة في الدراسات والتي لم يعزى فيها إلى أعداد الجرائد ، أصحابها لا يخرجون من أحدى أمرين :

-إما غفلوا أو تغافلوا عن العزو إليها حينما استفادوا منها ، ولا يعدوا أن يكون هذا سرقة الفكرية .

- إما لم يطالعوا ما جاء في الجرائد والمجلات الإسلامية والتي لا تخلوا من مناقشة ما يمت للباحث بصلة كما سبق ، وأصحاب هذا الاتجاه قسمان :

1 – قسم لم يتوفر له البحث والتنقيب في كل الجرائد لضيق اليد والحال فيوضح ذلك في مقدمة كتابه أو بحثه ، وهذا لا سبيل للتطاول عليه إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

2 – قسم توفر له ذلك ولكنه لم يرجع إليه فلا يخلوا أن يكون مقصرا في بحثه ودراسته .

إن عدم العزو إلى الجريدة أثناء الاستفادة منها لهو نكران لذلك الفضل العظيم الذي قدمته للأجيال السابقة واللاحقة ، ونكران للجميل وإساءة للمعروف وتقديم اليد اليسرى لفاعل خير . فإذا كانت أمة الإسلام التي اشتهرت بالأمانة العلمية منذ القدم والتي غابت عند غيرها من الأمم ، فإنه من الأولى العزو إليها كرد جميل وخير واعتراف على ما قدمته الصحافة الإسلامية للإسلام .

---

1 – تاريخ الصحافة الإسلامية الجزء الأول لأنوار الجندي .

فهرس